النهاية المأساوية لنوري السعيد

د. طالب حسين حافظ*

لم تكن نهاية حياة نوري السعيد مأساوية بالمعنى المجرد المعروف للمأساة, بل كانت خاتمة تراجيدية تعكس في كثير من مشاهدها هذه البقعة من الارض المكللة بالحزن والسواد والقسوة.. هذه المشاهد التي يبدو انها وكما ترعرعت في هذه الارض لا تريد ان تغادرها بسهولة, فقد عاد المشهد الدامي بعد اقل من اربع سنوات ونصف, ليتكرر بصورة جماعية اشد قسوة وعنفا ودمارا ليمتد لسنوات اخرى طوال .

في 15/14تموز 1958 لم يجد نوري السعيد واسع الشهرة والنفوذ والسلطة, بيتاً يأويه في العراق كله, واضطر الى التخفي بطريقة غير لائقة, وقتل بأبشع صورة, ومُثل به بوحشية على يد هذا السيد الطاغية الأعمى المنطلق من عقاله المسمى " الجموع الثائرة " دون قيادة... وفي هكذا احوال تُخرج النفس البشرية اسوأ ما فيها, وهذا هو الذي جرى , فلا قادة الثورة ولا أية جهة اخرى كانت قادرة على منع ما حدث, أو إصدار جهة اخرى كانت أو قرار يمنع وقوعه ... إنها متلازمة الثورة الشعبية !!!

بالتأكيد هنالك اسباب ذاتية واخرى موضوعية لذلك المشهد المأساوي لـ 15/14 تموز 1958 بشكل قلما تجسد مع شخصية اخرى عبر الازمنة والمكان . نتمنى ان نكون موضوعيين ونحن نؤشر بأسى بعضاً من تلك الاسباب :

1- داء السلطة وما تجسد عنه من حب الذات:

اصبح نوري السعيد رئيساً للوزراء اربع عشرة مرة, ووزيراً سبعاً واربعين مرة, منها اربع عشرة مرة وزيراً للدفاع.. كان هو الحاكم الفعلي المؤثر سواء من موقعه داخل السلطة أو خارجها كان له الدور الاهم في الحياة السياسية العراقية منذ قيام الدولة العراقية في بداية عشرينيات القرن الماضي حتى 14 تموز 1958 .. وبسبب انعكاسات ذلك وبريق السلطة, فقد نسى ان أعباء العقد الثامن من العمر تختلف تماماً عن ايام

* استاذ العلوم السياسية المساعد / مؤلف كتاب دولة العراق المعاصر .

This is an open access article under the CCBY license CC BY 4.0 Deed | Attribution 4.0 International | Creative Common : https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

الشباب, وإنه لا يمكن لرجل ان يقوم مقام أمة . و بسبب دوره الطاغي, كان دور مجلس النواب وسبل الحماية الدستورية حبراً على ورق, وبرز تباين واضح بين النظرية التطبيق .

2-**سياسة المراسيم** :

اعتاد نوري السعيد مدعوماً من الانجليز , ومنذ ان اصبح رئيساً للوزراء لأول مرة في اذار 1930, ان يرى نفسه صاحب الرأي المسموع في اختيار معظم الوزراء , بل في اختيار بعض رؤساء الوزراء احياناً لاسيما بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية في ايلول 1939, فعندما الف الدكتور فاضل الجمالي وزارته في ايلول 1953, اعلن نوري السعيد انه لم يستشر في تأليف هذه الوزارة , وسافر على اثرها غاضباً الى لندن, وهناك استطاع ان يقنع الدوائر البريطانية المختصة بأن مصالحهم في العراق ستفقد الحماية اللازمة بعد ان تكتلت مختلف قوى المعارضة في جبهة واحدة ودخلت في مجلس نيابي جديد يسيطر عليه الوصي عبدالاله , وتحت ضغط السفير البريطاني في بغداد , سافر الوصي خصيصاً لأسترضاء السعيد , وحمله على العودة انشاء وزارة تأخذ على عاتقها مجابهة الاحداث المنتظرة على ان تعطى له الحرية المطلقة في توزيرمن يشاء . وهكذا عاد نوري السعيد الى بغداد , إذ وجه رسالة الى الملك فيصل يضع فيها شروطه المسبقة وقد رد الملك على ذلك وتم حل مجلس النواب تمهيداً لاجراء انتخابات جديدة.

ويشكل نوري السعيد في آب 1954 وزارته الجديدة على الاسس التي فرضها.

وانسجاما مع الذات وتهيئة للانتخابات الجديدة وما ستضطلع به من سياسات منها التهيئة لإنشاء" حلف بغداد ", وما سماه من تطهير جهاز الدولة من العناصر الهدامة والفاسدة, ومكافحة الموالين للاستعمار ! فقد صدرت سلسلة من المراسيم :

1. أ. المرسوم المرقم 16 لسنة 1954 : تعديل قانون العقوبات البغدادي المرقم 51 لسنة 1938 سواء كان ذلك بصورة مباشرة او غير مباشرة بتهمة الترويج للشيوعية , لأنصار السلام و الشبيبة الديمقراطية وما الى ذلك .

ب. المرسوم المرقم 17 لسنة 1954 : اسقاط الجنسية العراقية للمحكوم وفق القانون المذكور اعلاه.

ج. المرسوم المرقم 18 لسنة 1954 : غلق النقابات .

This is an open access article under the CCBY license CC BY 4.0 Deed | Attribution 4.0 International | Creative Common : https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

د. المرسوم المرقم 19 لسنة 1954 : اغلاق الجمعيات والنوادي في كافة انحاء العراق وكان عددها (465) جمعية ونادي .

هـ. المرسوم المرقم 24 لسنة 1954 : الغاء اجازات الصحف والمجلات .

و. المرسوم المرقم 25 لسنة 1954: منع الاجتماعات العمومية والمظاهرات .

وضمن سياسة المراسيم, اجريت انتخابات جديدة قاطعتها معظم الاحزاب السياسية واجريت الانتخابات بمهزلة لم يشهد لها تاريخ البرلمان العراقي نظيراً, فقد فاز بالتزكية (121) نائب من اصل (135) .

كانت هذه الوزارة السعيدية الثانية عشرة , وما اجرتها من سياسة المراسيم وانتخابات هزيلة , الحد الفاصل النهائي بين ما تبقى من نوري السعيد وجماهير الشعب , فقد اثبتت اولاً: تبعيته المطلقة للانجليز ,واشرّت ثانياً : الخلافات العميقة بينه وبين الوصي ومن خلفه الملك وهشاشة ما يسمى بالعائلة المالكة .

2- **نتائج حرب 1941 في العراق** :

كانت انعكاسات هذه الحرب مأساوية على الجيش العراقي, فقد تم حل الجيش جزئياً والتنكيل بقادة حركة مايس والانتقام منهم وتعليق جثامينهم في بوابة وزارة الدفاع العراقية . ذلك ترك جرحا لم يندمل في نفوس الضباط الذين وجدوا في ثورة 14 تموز 1958 فرصة لن تتكرر للانتقام ..

ان مجريات تلك الحرب والحركة, افرزت معسكرين متضادين , هم السلطة(الوصي ونوري السعيد) الذين عادوا الى الحكم بمساندة الانجليز , بمواجهة الشعب الذي خرج لتأييد الجيش المنفتض .. ومرة اخرى عزل نوري السعيد نفسه في الخندق المضاد للجماهير.

3- **حرب العام 1948 وإنشاء (اسرائيل" الكيان الصهيوني")** :

على الرغم من كل ماقيل عن تلك الحرب ونتائجها , وعلى الرغم من ان مشاركة القوات العسكرية العراقية كانت افضل بكثير من مشاركات الجيوش العربية مجتمعة إلا ان الهزيمة التي الحقت الجيوش العربية المشاركة وانشاء (اسرائيل) بدعم غربي مكشوف , زاد من عزلة السلطة في العراق .. وبدأت موجة السخط تسري في صفوف الضباط العرب , الذي كان باكورتها تفجير ثورة 23 يوليو 1952 في مصر ثم ثورة 14 تموز 1958 في العراق .

This is an open access article under the CCBY license CC BY 4.0 Deed | Attribution 4.0 International | Creative Common : https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

4- **حالة الاستقطاب الدولي** :

اسفر انتهاء الحرب العالمية الثانية عن بروز معسكرين متضادين مختلفان عقائديا, ونتج عن ذلك ما عرف بالحرب الباردة, وظهور احلاف تدور في رحى ذينيك القطبين الكبيرين (الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة) ومنها حلف بغداد .

وهكذا اضحى العراق – سيما بعد ان قطع علاقاته الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي في كانون الثاني 1955 – بيدقاً بإمرة المعسكر الغربي, وبذلك جلبت السلطة الحاكمة (المختارة) سخط الرأي العام العراقي والعربي عليها . وكان قطب الرحى في ذلك التحرك المحموم هو نوري السعيد .تزامن ذلك مع موجة كبيرة من الاستقلال والتحرر الوطني عمت دول العالم الثالث بدعم من الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية في وقت كان فيه بريق الاشتراكية والشيوعية وموجة القومية العربية ليس له منافس .. كان ذلك في وقت بدأ فيه نفوذ الاستعمار الغربي بالأفول, سيما بعد مؤتمر باندونغ وظهور حركة عدم الانحياز . وهكذا كان الرأي العام العراقي مدفوعاً بقوة ضد المعسكر الغربي, وما يمثله نوري السعيد والسلطة الملكية الحاكمة .

في ذلك الظرف الحاد من الاستقطاب الدولي, تحول العراق بعد ان اصبحت بغداد مقراً لحلف غربي, الى ساحة صراع عنيفة بين الجماهير والسلطة من جهة, وبين موجة القوى القومية العربيةالصاعدة والانظمة اليمينية المحافظة من جهة اخرى ... وكان نوري السعيد هو الرمز الواضح في كلتا جهتي الصراع .

5- **حرب السويس 1956** :

مرة اخرى اختار نوري السعيد ليلقي بنفسه طوعاً في عش الدبابير أبان تلك الحرب التي انتهت (سياسياً) بانتصار جمال عبدالناصر, سيما وقد اصبح مكشوفاً موقفه المحرض لبريطانيا في ضرب جمال عبدالناصر . كان من الممكن ان تمر الامور بصورة اخرى, لولا اشتراك (اسرائيل) في تلك الحرب ضد مصر , وما اشيع من استخدام بريطانيا لقواعدها الجوية في العراق في تلك الحرب .

استغل جمال عبدالناصر تلك الحرب ونتائجها لشن حملات اعلامية وسياسية عنيفة ضد نوري السعيد, واضحت اذاعة صوت العرب وتعليقاتها التي كانت تسمع في كل العراق, منبراً عالياً للطعن في سياسات نوري السعيد وارتباطاته بالغرب, مما زاد في عزلته وكره الشعب العراقي له .

This is an open access article under the CCBY license CC BY 4.0 Deed | Attribution 4.0 International | Creative Common : https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

6- **الانجليز وسياسة (الخنق النفطي) وتجويع الشعب** :

من المعروف ان النفط كان واحداً من اهم اسباب تشبث الانجليز باحتلالهم للعراق اثناء الحرب الاولى ثم استعماره بذلك وعلى الرغم من ان العراق كان ثاني دولة في التسلسل الزمني بعد ايران في انتاج النفط,

إلا ان الانجليز ولأسباب خاصة جعلوا من العراق بلدا متدنياً في الانتاج النفطي, لا بل حتى ادنى من انتاج الكويت أو السعودية اللاتي بدأتا انتاج النفط بعد العراق بسنوات . ولم يكتفوا بذلك, بل حرموا العراق من نسبة عائداته المقررة .وبهذه السياسة حرموا العراق لمدة ربع قرن من الازدهار والتقدم وبالتأكيد فإن ذلك انعكس سلبا ونقمة على رموز الانجليز في العراق وفي مقدمة منهم نوري السعيد .

7- **الصراع بين نوري السعيد وعبدالاله** :

خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية بلداً ضعيفاً بعد ان كانت امبراطوريتها لا تغيب عنها الشمس وبدأت الولايات المتحدة تحل تدريجيا لتأخذ مكانتها في العالم (بسمعة جيدة) انعكس ذلك صراعاً خفياً بين القوة الصاعدة والقوة العجوز, وكان ما انعكس عليه في العراق , صراع بين الوصي عبدالاله ونوري السعيد .. ولحسابات قد تكون خاطئة, ظل نوري السعيد متشبثاً بالانجليز حتى اخر لحظة

8- **هشاشة الحكم والعائلة المالكة** :

كشفت الساعة الاولى من صباح ذلك اليوم الدامي 14 تموز 1958 عن هشاشة النظام القائم, فقد تم تصفية العائلة المالكة, والقبض على معظم رجالات السلطة بسرعة غير متوقعة, واتضح زيف ما يسمى(العائلة المالكة) وسطوتها . لقد انهار كل شيء في بضع ساعات ولم يجرؤ احد على اصدار امر مضاد او تحريك ساكن . كما لايمكن عزل النهاية المأساوية لنوري السعيد عن طبيعة المجتمع العراقي الميالة للعنف الصعبة المراس والانقياد .

ويبقى التذكير بالحدث استعادة لذكرى مؤلمة .

مراجع :

- طالب حسين حافظ : **دولة العراق المعاصر** (بغداد ، دار الكتب العلمية ، 2021) .
- طالب حسن حافظ : **النفط والسياسة في العراق** (بغداد : دار الكتب العلمية ، ط2، 2021).

This is an open access article under the CCBY license CC BY 4.0 Deed | Attribution 4.0 International | Creative Common : https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/